

## بسم الله الرحمن الرحيم

### قبسات من حياة خليفة الأسلاف

#### الحبيب عبد القادر السقاف

#### تمهيد:

الكتابة عن الأكابر، والنقاوة من الجواهر - وبخاصة بعد رحيلهم عن هذه الفانية - متعينٌ على المحبين من المؤمنين، فكيف إذا كان هذا الرَّاحِلَ إمامَ عالم عامل من عيون البيت النبوي، وصفوة المجد الحمدي؟!!

وقد قرأت حوالي سبعمائة صفحة دَبَّحْتُهَا بِرَأْسِ وَأَحَدٍ مِنْ الْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ، حَضَرَ عَلَيْهِ وَعَرَفَهُ دَهْرًا عَنْ قَرَبٍ؛ وَهُوَ السَّيِّدُ أَبُو بَكْرٍ الْمَشْهُورُ - أَمْتَعَ اللَّهُ بِهِ - وَسَمِعْتُ عَشْرَاتِ الْمَجَالِسِ الْمَسْجِدَةِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ نَفْسِهِ - رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَحَالَهُ وَكَلَامَهُ وَدَعْوَتَهُ، جَعَلَتْ فِي نَفْسِي تَعْلَقًا وَأَنْسَاءً بِهِ، كَمَا حَصَلَ لكَثِيرِينَ مِمَّنْ دَنَوْا مِنْهُ، وَخَالَطُوهُ!

وليس غريباً عمن ارتضع العلم والحال، وعاش في كنف الأكابر أن يتخلق بأخلاقهم، ويسير على منوالهم، فكيف إذا كان منهم وفيهم وفي بجوحة مجد بيتهم، وعز سلطانهم؟!!

ولا أقل أن أكشف عن ومضاتٍ من حياة هذا العالم الكبير علقت في الذاكرة، يمكن أن يتكون من خلالها إرثه الحمدي، وتلقيه للجناب النبوي!

## العطاء الكبير دون تكلف:

أعجبتني كلمة قالها أحد الأكابر: إن رأيت رجلاً يقول إنه من أهل البيت وكان بخيلاً فلا تصدقه!!

وعندنا قصص لا تحصى عن كرم وجود أهل البيت الطاهر حيث كانوا، دون تكلف، ودون منٍّ أو أذى!  
القصة الأولى:

ومما سمعت من عطاء وكرم الحبيب عبد القادر - رحمة الله عليه - أن رجلاً زاره في منزله وكان في مباسطة فأظهر للحبيب إعجابه بسيارة صُنِّت على باب الحبيب!

فقال الرجل: يا حبيب السيارة الفلانية لكم، إنها جميلة؟!

فنادى الحبيب دون تريت ولدأ في الدار: هات يا فلان مفتاح السيارة الفلانية!

وعلى الفور ناول الحبيب الرجل المفتاح وقال له: هذه لك!!

ولا يُستغرب ذلك من وارثٍ عن الحبيب المصطفى ﷺ الذي أعطى في مجلس واحد ثلاثمئة ناقة لرجلٍ واحد!

القصة الثانية:

ومن ذلك: أن رجلاً وضع بين يديه كيساً فيه مليون ريال سعودي، في منزله العامر في (جدة) على أن يضعه حيث شاء!

فقال الحبيب: لا حاجة لنا فيه!

فقال الرجل: خرجت مني، اصرفوها يا حبيب!

يقول الحبيب علي الجفري - أمتع الله به - مشيت مع الحبيب عبد القادر في السيارة تنتقل من بيت إلى بيت، ومن أسرة إلى أسرة، يعرف أعيانهم وأماكن سكناتهم دون تردد، فلما نفذ الكيس بعد الظهر بمدّة نفضه؛ وقال: اللهم اشهد! لم يُبقِ له أو لأهل بيته ريالاً واحداً!!

ثم سمعت القصة من سيدي الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ - أمتع الله به المسلمين - في جامع التوبة في دمشق عندما ترجم للحبيب عبد القادر ترجمة مفعمة بأخباره وأحواله تأثر لسماعتها المسجد الذي غصّ بالناس، وكانت ليلة مشهودة!!

## السعي في مصالح الناس:

قلوب الأولياء مفعمة بالرحمة، وقد حدثوا بغرائب عن سعيه في مصالح المسلمين، ومنها ما قاله سيدي الحبيب عمر أنه لما زار الحبيب عبد القادر دولة الإمارات عرض على الشيخ زايد -رحمه الله- جملةً غير قليلةٍ من الأسماء أن تمنح لهم السبل التي تجعلهم يستقرون في الدولة ويأمنون فيها، فوافق الشيخ زايد عليها كلها؛ و قال: ما وقعت على عدد مثل هذا قبل الآن لخاطركم الكبير!

ولما عرض عليه الشيخ زايد أن يقضي حاجة له أو لبعض أهله قال الحبيب: لا، لا حاجة لي إلا اقتضاء حاجة هؤلاء!!

وقد سعى -كما قال سيدي الحبيب عمر- مرةً في جدة في تأمين (إقامات) لبعض من كان يشتدّ عليه ويسفّه رأيه، واعتقاده، وما ترك موضوعهم إلا على أحسن حال، وأهنأ بال؛ فانقلبوا من مبغضين إلى محبين متعلقين بحضور مجلسه؛ وهكذا يعمل الإحسان في النفوس!

## الشفقة والأخذ بالخواطر:

مراعاة خواطر من تخالط من فرائض أهل الوراثة الحمديّة، ولذا ترى الواحد من هؤلاء لا يكاد يهدأ من مكان إلى مكان فهذا مريض يعاد، وهذا عنده فرح عرس، وهذا يعزى، وهذا عنده عقيقه، وهذا عنده كرب يحتاج لتفيس، وهذا مدين يسعى في قضاء دينه، وهذا يأتيه بطفل ليحتك، وهذا وهذا.. ولا يقدر على القيام بما دون إظهار شيء من التبرّم والضيق إلا أهل الإرث الحمدي، وبخاصة من هؤلاء؛ أهل البيت الطاهرّ .

وقد حمّله وُدّه وأخذه بخاطر أحد المحبين مرة إلى حال غريب!  
ودّعه محبّ، وأغلق على الحبيب باب السيارة دون أن ينتبه أنه أغلق على طرف كفّ الحبيب، فتحامل الحبيب على نفسه، ولم يظهر شكوى؛ حتى إذا ما مضى خطوات والتف الطريق أوقف قائد السيارة، وقال له افتح الباب فذهل الرجل، وقال: يا حبيب لمّ كمّ تسارع لإخباري - وقد تأثرت أصابعه - ؟!

فقال الحبيب: سيتأثر الرجل جداً وقد يترك مجالستنا، حياءً من مقابلي!

بالله عليكم كيف ترون هذه الأخلاق الحمديّة ؟!

كيف ترون هذه الشمائل السنية المرضية؟!  
على هذا فطر الأكابر؛ محاسن أخلاق حتى آخر لحظة في حياتهم.

### وبعد:

فالكلام عن الكبار كبير، ولا يكاد ينقضي، ولم أشأ أن أكتب ترجمة تقليدية فهي موجودة في مظانها، وتكفي ترجمة السيد العلامة أبي بكر المشهور -حفظه الله تعالى ونفعنا به- التي سماها: (جني القطاف من مناقب وأحوال الإمام العلامة خليفة الأسلاف عبد القادر بن أحمد بن عبد الرحمن السقاف) وتقع في (678) صفحة طبعة -دار المهاجر- كريم. ولكن أردت أن أكتب من القصص التي قال في مثلها الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله: (إن قصص الصالحين أحب إلي من كثير من الفقه؛ وما ذلك إلا لأنها ترجمة حية لشعائر الشريعة ومحاسنها).

وما ذكرته هنا من القصص إنما هو بأسلوبى مجتهداً فيه كما سمعت، ويحسن أن نختتم هذه الومضات في الشمائل الكريمة بأبيات قيلت فيه -رحمة الله عليه ورضوانه- وهي من قول السيد إبراهيم بن عقيل بن يحيى:

جمع الإله محاسن الأوصاف في الغوث عبد القادر السقاف  
أحيا به المولى علوم كتابه و به استقامت سيرة الأسلاف  
و لقد تربع في ربيع مقامهم فهو الخليفة دون أي خلاف

### ولادته ووفاته ودفنه:

ولد الحبيب عبد القادر بن أحمد -العلامة الكبير، والداعية الوارث- في مدينة سيون في جمادى الآخرة سنة 1331هـ.

وتوفي في جدة فجر السبت 19 ربيع الآخر الموافق 3 نيسان إبريل. وقد صُلي عليه في منزله جماعات جماعات، ثم صُلي عليه في الحرم المكي بعد صلاة العشاء ومن ثم دفن في المعلاة، وقد كان يوماً مشهوداً تأثر فيه الناس لموته. فاخلفه الله فينا بخير خلف وإنا لله وإنا إليه راجعون.